الساعة الخامسة والعشرون

بقلم : فاروق خورشيد

قال تريان كوروغا لأبيه وصديقه اثر عودته من العاصمة الى منزل اسرته في الريف :

ـ ان أشخاص روايتي القادمة سيكونون من الرجال الذين يعيشون على سطح الكرة الارضية ! ولما كان هومير نفسه يعجز عن كتابة قصة ابطالها مليارات من الأشخاص . فانني بدوري لن آخذ الا عددا قليلا . لا يتجاوز العشرة لأنني لن أحتاج الى اكثر من هذا العدد .. ومع ذلك فان هؤلاء العشرة سيحيون نفس الحوادث التي سيحياها الآخرون ..

وحين تبادل سامعوه أسئلة الحيرة والدهشة عن كيفية انتقاء هؤلاء العشرة قال تريان :

ـ لسوف أعني في ايراد حوادث لا يمكن للمخلوق البشري ان ينجو من الوقوع في مثلها . ولن أكون في حاجة الى شخصيات تقوم بدور البطولة أو تكون ذات اهمية معينة . بل سأترك للصدف أمر ابرازهم . وعلى ذلك فانني سأنتقي من مليارين من البشر ، عشرة اعرفهم أكثر من سواهم . اسرة كاملة ، أسرتي مثلا ، أبي وأمي وأنا وأنت وخدم ابي . وبعض الأصدقاء والجيران ..

وكان تريان يؤمن أن حدثا خطيرا قد وقع ، حقا انه يجهل اين الخطر ومتى بدا ولكنه واثق أنه وقع وأنه سيدوم ويقول :

ـ انني أشعر بهذا الحدث الهائل ، شعورا لا يضاهيه الا احساس الحيوان المسبق الذي يدعوهم الى هجر مركب على وشك الغرق . لن يكون لنا اي مأوى في اي مكان من العالم .

انه خوف يملأ قلبه من ثورة تدات بالعمل ، ولن يحس الناس بها تاخذ بخناقهم الا متاخرا . وحين يضيقون الى الخطر لن تكون هناك مفاجاة منه .. انها ثورة الرقيق الجديدة .. ثورة الرقيق الآلي الذي حل في حياة البشرية محل الرقيق البشري القديم .. فان الحياة اليوم تتحرك بجهد عشرات المليارات من الرقيق العلميين أو الميكانيكيين ، فالبواخر اليوم لم تعد تسير بقوة عضلات العبيد الذين كانوا يسيرون السفن القديمة . بل بقوة الرقيق الفني . وعندما تحل الظلام فان الرجل الثري لم يعد يضرب كفيه آمرا عبيده بالمجيء حاملين المشاعل كما كان يفعل سلفه في روما واثينا ، بل انه يدير زرا فيقوم الرقيق الفني بانارة غرفته .. ويقول تريان شارحا رؤيته المخيفة :

ـ ان العبيد الصينيين يشكلون اليوم ، أكثرية عددية ساحقة في المجتمع الحاضر تلك حقيقة ملموسة ـ انهم يتصرفون في هذا المجتمع وفق قوانين خاصة ، مختلفة عن قوانين البشر ، ولن أذكر من هذه القوانين الخاصة بالعبيد الصينيين الا الآلية ، والمماثلة ، واعمال الذات !!

ان هذه الرؤية الشعرية تبدو كالنبوءة المخيفة التي تلقي بظلها الثقيل فوق انفاس البشرية فهي تعني أننا ـ نحن البشر ـ كأقلية عددية في دنيا الآلة سنضطر كي تستمر الآلة على خدمتنا ان نتخلى عن انسانيتنا خطوة خطوة لنتعلم اسلوب حياة عبيدنا الميكانيكيين .. ويقول تريان كورونغا :

ـ سيكون دلالة التخلي عن الانسانية ، احتقار الكائن البشري ، ان الرجل العصري يعرف انه ورملاءه من بني الانسان ، ليسوا الا عبارة عن عناصر يمكن استبدالها .. والمجتمع الحديث الذي يحتوي على رجل واحد ، مقابل كل ثلاثين عبدا فيما ، ينبغي ان ينظم وأن يعمل حسب النظم الفنية ، لانه مجتمع خلق وبني على احتياجات ميكانيكية وليست انسانية ، وهنا تبدأ الفاجعة ..

ويوضح تريان هذه الرؤية الرهيبة قائلا :

ـ ان هذا التحول البطيء سيقلب الكائن الحي ، وسيجعله متخليا عن احساساته وعلاقاته الاجتماعية ويجعلها محصورة في حدود ضيقة ، واضحة ، آلية تماما ، كتلك العلاقات التي تجمع بين قطعة آلة واخرى ، وسوف يفقد البشر في علاقاتهم الاجتماعية ، وفي الادارة ، وفنون النقش والرسم ، والأدب وفي الرقص ، الاسلوب واللغة الخاصين بالرقيق الآلي وستصبح المخلوقات البشرية بقاوات ، تنقل رغبات العبيد الميكانيكيين ، غير ان كل هذا ليس الا بداية الفاجعة ، من هذه البداية تبدأ كذلك روايتي ، واقصد حياة ابي وامي وحياتي وحياة الآخرين ..

ان الفاجعة في نبوءته سوف تتفجر من الصدام بين الطبيعة البشرية والآلة .. وقد بدأ هذا الصدام بالفعل فالبشر لا يمكن ان يتحولوا الى آلات ولكنهم سوف يخسرون المعركة التي لا بد أن يربحها الخدم الميكانيكيون الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في هذا العالم .

ويقول صديق تريان في ذعر :

ـ ان تشاؤمك عنيف جدا .

فيقول تريان في اندفاع :

ـ انني شاعر يا جورج ، املك شعورا يسمح لي بالتنبؤ بالمستقبل لا يملك الآخرون مثله ان الشاعر نبي ، انني آسف اذا اتتنا بأشياء مفجعة كهذه ، لكن مهمتي كشاعر ترغمني على ذلك ، ينبغي أن أصرح ، وان أحمل الاصداء قول حتى ولو كان قولا ممجوجا ، وتصبح الرؤية مجسمة ورهيبة حين يرسم تريان صورة الانسان في هذا المجتمع :

ـ ان اى شيء يمكن ان يحدث للانسان . طالما قد تحول الرجل الى نسمه . ذات قيمة آلية اجتماعيه . انه بوصفه هذا يتعرض للاصابه بأى شيء .. يمكن ان يعطل ، وان يرسل للقيام بالاعمال الشاقة ، بل وان يستأصل من جذوره .. فهو يمكن ان يرغم على مزاولة اعمال معينة سواء لتحسين العنصر او لاهداف أخرى ضرورية للمجتمع الآلى . دون أن ينظر الى شخص بعين الاعتبار . ان المجتمع الآلى يعمل فقط بناء على نظم آلية تهدف الى مشاريع معينة وتعمل بوحى واحد ، وهو الانتاج ..

هذه هى الرواية التى يكتبها تريان ، رواية عذاب الانسان الرهيب والآله تأكله لتسيره ، وتتحكم فيه ليكون دائما فى خدمتها وخدمة نظمها .. وحين يسأله صديقه عن عنوانها يقول :

ـ الساعة الخامسة والعشرون . اللحظة التى تكون فيها كل محاولة للانقاذ عديمه الجدوى ، بل ان قيام مسيح فيها لن يجدى فتيلا . انها ليست الساعة الاخيرة ، بل هى ساعة بعد الساعة الاخيره ، ساعة المجتمع الغربى . انها الساعة الحاضرة ..

هذه هى الرواية التى كتبها جيورجيو الكاتب الرومانى الذى لم يعرفه العالم الا من خلال كتابه الفريد هذا ، واسمه الكامل كونستانتان « جيرجيل » جيورجيو ، وهو من مواليد رومانيا عام ١٩١٦ ، ودرس اللاهوت والفلسفة فى جامعتى بوخارست وهيدلبرج وفاز بالجائزة الملكية للشعر فى رومانيا عام ١٩٤٠ .. ثم كتب كتابه هذا واعتزل الحياة بعده فى دير متوحد بعيد ..

وهذا الكتاب لم تظهر طبعته الاولى فى رومانيا بل صدرت فى فرنسا ، كما لم يظهر بلغته الاصلية بل ظهر فى ترجمة فرنسية .. ويقول الناشر ، ان المؤلف لمس لاسباب جد بديهية استحالة نشر كتابه فى موطنه » ويقول جابرييل مارسيل فى مقدمة الطبعة بالفرنسيه « اكاد اجزم ان جانب الاخلاق فى « الساعة الخامسة والعشرون » يكاد أن يكون مغفلا . لست اريد ان اقول ان كل ما فى هذا الكتاب انما هو ترجمه وقائع شخصية دقيقة ، برغم أن المؤلف وروحه عانيا شخصيا بعضا من من اقسى المحن المدرجه فيه . لكن ماعمله السيد جيورجيو ، كان مقتصرا على جمع عناصر هذه القصة المبعثرة ، التى هى فى جوهرها أصدق ما يمكن قراءته وبالتالى أقل نغما بالنسبة لتشيع لا يخرج عن كونه متشيعا فحسب . ولا يمكن لهذا الكتاب ان يستغل من جانب واحد من الاحزاب القائمه حاليا ، وهذا اثمن مايبدو فيه » .

والذى لا شك فيه ان عمل القصاص فى هذه الرواية يبنى على كثير من الرصد الدقيق للصوره الرهيبة البشعة التى تحولت اليها قيمة الانسان فى أوروبا الوسطى ابان الحرب العالمية الثانية حيث حل الحقد والخوف والتشفى مكان الوشائج الطبيعية التى تربط الانسان باخيه .. وحيث حل الاغتيال والموت والضياع محل الحرية والحياة والوجود .. وحيث حلت قيمة المعسكرات المتنازعة ومصلحتها وامنها محل كل اعتبار لقيمة الانسان كانسان له حقه فى الوجود ، وله حقه فى الحماية ..

وابطال القصة كما وعد تريان هم هو ومن يعرف .. هو وزوجته وابوه وخادمته

هم اهل قريته لوادعه البسيطه التي تعيش وسط ريف رومانيا بعيدة عن كل الشهوات التي تتنازع العالم وتدمره .. ولكن العالم يزحف اليها حيث هي ، يزحف اليها ليدمرها ويهينها !! يزحف اليها ليحمل منها ومن الناس البسطاء فيها ثروة هي محطة الوحش الدائر الذي يغتصب كل يوم قيمة جديدة من قيم الانسان ليقتات عليها ويحولها خرابه وبقايا ورمادا ..

ايوهان موريتز المزارع الشاب الصغير الذي يعمل حادما في كنيسة الراعي كوروجا والد تريان يحب .. ولكن الحب هذه الايام لا يعيش الا في الخفاء وسط الخشائش العالية وخلف الاشجار العليظة ، فاذا ما انكشف امره حكمت عليه مفاهيم العصر بحطمه وتقضي عليه .. فابو حبيبته آري متعصب لا يرضى لابنته أن تتزوج رومانيا فلاحا ، والسوط لها ان احبت ، والسوط لامها حتى تموت ان لم يجد الفتاة يشفي بتعذيبها عليله ويرضي ثورته العارمة .. فاذا ماماتت الام وساقه الشرطه لم يسأل سوى عن مصير حيوله . فالجبل لا الانسان هو حلم رجل الجرف العتيد سليل الآريين .

وبين صليل القيود في يد الاب وحفيفات التراب تنهال فوق قبر الام ، وصيحات الاستنكار والاستهجار من الحياة السليطه تتزوج سورانا من ايوهان موريتز .. ولكن السعادة لا تعرف طريقا الى العش الصغير فرئيس الشرطة في القرية يضع فيها وهي تصدره ، والعصر يعطيه السلاح ليبعد الزوج عن طريقه الى الروحة العنيدة فحين طلب منه السلطات اعتقال اليهود ليصلوا في بناء سور يحمي رومانيا من الغرب يضع اسم ايوهان على رأس القائمة .. وذات صباح يغادر ايوهان القرية في طريقه الى المعتقل الكبير وصيحات احتجاجه لا تجدي ومحاولاته العديدة في ان يفهم سر اعتقاله لاتجد أذنا تصغي ..

وفي معتقل اليهود ينكره كل من في المعسكر فهو ليس مثلهم ، لا يعيش حياتهم ولا يتكلم لغتهم ولا يدين بدينهم ، ولا يحمل حقدهم الأسود الرهيب على رومانيا التي اعتقلته ظلما بينهم .. ويحاول هو أن يعلن أن ثمة خطأ قد حدث فهو مسيحي معمد وليس معقولا أن يسجن بادعاء انه يهودي .. ولكن دعواه لاتجد من يستمع اليها فليس لدى الحرس وقت يضيعونه مع سجين يهذي ويكذب ويخلق لهم المشاكل العويصة .

ولكن القس كوروجا الذي كان ايوهان خادما في كنيسته لا يستطيع ان يسكت كما سكت الآخرون خوفا وجبنا فيمضي يطرق كل باب يحاول أن يدخل في أذهان المسئولين وما أكثرهم أن ايوهان راح ضحية خطأ او ضحية مؤامرة .. وكان في البدء يعتقد أن الأمر سهل فهو قسيس القرية وهو الذي عمد ايوهان بيديه .. ولكنه سرعان ما بدأ يدرك ان الأمر ليس كما كان يتصور .. عشرات الموظفين ، وعشرات المسئولين كل يحيله الى الآخر .. وعشرات الساعات تروح وهو في انتظار أمام باب معلق ، ليسمع منه الى الوقوف أمام باب آخر معلق يحرسه السخاء والجمود .. وانتهى به المطاف عند الحافظ الذي كان صريحا وواضحا .. لامكان لمشكلة ايوهان وسط

عديد المشاكل التي تواجهها الدولة وهي في حالة حرب .. ويخطر متقلة بمسير القسيس عبر المدينة ليقف أمام كنيسة عند مدخلها ، ويركع على قدميه ليهمس صلاته المريرة :

« لنصل الآن ، من أجل اولئك الذين يمتلكون جزءا حقيرا من السلطة ، لنصل من أجل كل اولئك الذين علينا ان نحتمل بينهم ظلم الدولة وعذابها ، من أجل أولئك الذين يحققون ثم يعيدون التحقيق للتأكد من صحته ، من أجل اولئك الذين يعطون الصلاحيات ويشرعون المنوعات ، لنبتهل الا يؤمنوا بالحرف والرقم ، فيعتبروهما أكثر حقيقة وأشد حياة من اللحم والدم .. »

ولكن ايوهان يبقى في معسكر اليهود يبني سورا لا يعرف مداه ولا نهايته ويحفر الطريق ويرفع الأتربة ويتحمل اهانات اليهود وسخرية الحرس .. ولكن الصدف تدفعه في طريق مجموعة من اليهود تستعد للهرب من المعسكر برشوة صحية يقدمونها للحارس ويحتاجون الى من يحمل لهم الأمتعة في طريق هربهم الشاق الى بلغاريا .. ويقع ايوهان فريسة اغراءاتهم له بالحرية والعمل والسعادة في الأرض الجديدة فيرافقهم في الطريق يحمل لهم الأمتعة وهم السادة وهو الخادم العلاج المسيحي الذي يسير وراءهم كالكلب يتبع سادته .. وفي بلغاريا يتخلى عنه أصحابه اليهود ويفرون الى امريكا أما هو فيقع من جديد في يد سلطات بلغاريا بصفته جاسوسا رومانيا متسللا ، وفي المعتقل الجديد يلقى أهوال عذاب رهيب ليستخرج منه المحققون أسماء من تسللوا معه الى بلغاريا وحقيقة مهمتهم فيها .. وهو لا يعرف الا أن جسده يحترق وأن جلده يتمزق وأن الألم رهيب وأن الصراخ لا يجدي والحقيقة لا قيمة لها .. وتظهر خادمة صغيرة كانت تعمل عند اقارب هؤلاء اليهود الهاربين لتؤيد قصته وتؤكد أنه صحية وأنه لا يعرف من كل ما يريدون شيئا .. ويخرج عن ايوهان ليوضع من جديد في معتقل آخر تمهيدا للبت في امره ..

وبلغاريا حليفة لألمانيا وهي لا تملك الا ان تكون حليفة بدلا من الاحتلال السافر الرهيب ، وهي تطلب المانيا من حليفتها خمسين الف عامل ليعملوا في مصانعها يقع مجلس وزرائها في اشكال رهيب .. فهو ان وافق تحمل مسئولية تسليم المواطنين للرق الألماني ، وهو ان رفض غرض البلاد كلها لاسقام يشع واسلم كل البلغاريين للرق الألماني .. ويأتي الحل العسكري الذي يعتد للألمان ما يشاءون دون مساس بحرية أهل بلغاريا أنفسهم .. لقد قرر مجلس الوزراء ان يرحل الى المانيا كل الأجانب المعتقلين في الأرض البلغارية باعتبارهم من البلغار ، ولي يهم الألمان سوى الخمسين ألفا من الايدي العاملة .. ويقول الكونت بارثولي رئيس الصحافة البلغارية لابنه لوسيان :

ـ الا تشعر ياولدي بامتهان عند ما تعرف أن اباك قد ساهم اليوم في عقد صفقة بيع أحياء آدميين ؟ ان هذا النوع من التجارة هو آخر مرحلة على سلم الانحطاط الخلقي ..

ويقول لوسيان :

ـ ينبغي الا تنظر الى الامور من هذه الزاوية المؤسيه . ان العمال الموقدين الى المانيا لن يكونوا مقلول الايدى . انهم يذهبون الى هناك كعمال ..

ويقول الكونت في مرارة :

ـ لن يقلوا في الحديد لانهم لن يستطيعوا قرارا . ان المجتمع المعاصر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق مالم يملكه اليونان من قبل . انني لا افكر فقط في المدافع الرشاشة وحواجز الأسلاك الشائكة التي يمر بها تيار كهربائي صاعق .. بل افكر كذلك في الأساليب التعسفية للآلية التي يعمد اليها النظام البيروقراطي للرقابة على الكائن الحي . واقصد بطاقات الاعاشة واذون رجال الشرطة للحصول على سرير في الفندق او ركوب الأوتوبيس او التنزه في الشارع أو ابدال المسكن . ان اليونان والمصريين ما كانوا ليكبلوا أيدى عبيدهم وارجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التي لمجتمعنا المتدين . غير ان الرقيق لم يتبدل ..

ويرفض لوسيان أن يقتنع بكلام أبيه فاحراه مجلس الوزراء يرضيه ، بل هو عنده احراء بارع ، ومصير المعتقلين لايشغل باله على الاطلاق .. فيقول الكونت

ـ ان هذا أشد خطورة لأن معناه انك لا تملك ذرة من الاحترام للكائن البشرى . ولما كنت بشرا كذلك فان معناه انك فقدت كل احترام لنفسك ..

ولكن الأمر قد تقرر وايوهان موريتز يرحل الى المانيا بصفته عاملا بلغاريا ، واحدا من خمسين الف عامل يشكلون بعثة الصداقة بين عمال بلغاريا والمانيا الخليفة ويحشد مع غيره في قطار طويل يسير ليلا ويقف عند النهار .. وما ان يصل حتى يحاط بالورود وتنشد حوله الأناشيد ويسلم ايوهان الى سيده الجديد ..

وسيد ايوهان الجديد هو الآلة سافرة بغير حجب هذه المرة .. انها الآلة التي عليه أن يعمل أمامها في المصنع الالماني الذى أرسل اليه .. ويقول له الموظف الألماني الذى كلف بارشاده الى العمل :

ـ ان الانسان الآلى لا يمكنه أن يتطبع برغبة الانسان . فعليك اذن ان تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته .. ان هذا طبيعي جدا . لانه هو العامل الكامل.. اما انت فانك لست كاملا . لا تستطيع الانسان ، اى انسان أن يكون عاملا كاملا ، أما الآلات فانها وحدها تستطيع أن تكون كذلك ، ينبغي ان تمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل . هل فهمت ؟ ان الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال . فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى . لكنك لن تستطيع أن تكون عاملا من الدرجة الأولى لانك بلغارى ، والبلغاريون في المصانع ينظرون الى السماء وليس الى الآلات .

ويدور ايوهان مع الآلة ويدور ، ويسقط صريعا فيذهب الى المستشفى ثم يعود امام الآلة .. تأتي له بالصندوق ليرفعه الى مكانه تحمله آلة أخرى الى العربات ، كل ساعات نهاره تضبط حركته الآلة ، ولم يتحرك به الخيال حول هذه الصناديق

المعلقة يحتل النظام وتثور عليه الآلات ويحطم ويعاقب .. ومن يومها يرقص حتى التفكير ، انه مع الآلة وامام الآلة وجودا وفكرا وحيالا وانعاسا ..

ولكن العمل في المصنع رغم خضوعه للنظام لا يأتي بالنتائج المرجوة والتي قررت الارقام من قبل أنها لابد أن تتحقق ، ويقرر الأطباء أن السبب هو بعد الرجال في المصنع عن النساء .. وذات مساء تحمل عربات نورى متعددة نساء كثيرات الى العنابر التي ينام فيها الرجال ليعود الانتاج محققا الارقام المقدرة من قبل .. ويهرب ايوهان من عنابر النوم الى هواء الليل يضرب وجهه المتصرم الثائر ، ويهمس صوت جاره الفرنسي في الوقوف أمام الآلة قائلا :

ـ انهن بولونيات من معسكرات الاعتقال ـ ان المعتقلات في ذلك المعسكر يستعدن حريتهن اذا زاولن هذا العمل مدة ستة شهور .. غير انهن خلال هذه الفترة يتهددهن تهديما .. انهن لا يغادرن معسكرات الاعتقال الا الى المستشفى أو المشرحة .. انهن لسن محترفات .. بل هن رقيق مثلنا يبذلن مجهودا يائسا لنيل حريتهن ، انهن رقيق يحاول تحطيم اعلاله بيديه وحدهما دون الاستعانة بأية أداة أخرى ، انهن يمزقن أجسادهن وهن يحاولن تحطيم سلاسلهن وأغلالهن . انه عمل ينطوى على بطولة . ولكن للأسف ان اغلال العبودية أقوى من الجسد البشرى ..

وفي الصباح هرب جاره الفرنسي ..

ولكن عذاب ايوهان في المصنع لا يطول ، اذ يكتشف فيه أحد علماء الجنس الآرى المهووسين صورة كاملة لنموذج الرجل الآرى فيصدر أوامره بان يكرم وأن يلحق بالجيش النازى وأن يعتنى به بصفته من (العائلة الشجاعة) أشد فصائل المحاربين الجرمان بأسا منذ أول التاريخ ..

وهكذا ، ويأمر الفهرر ، موالر ، عدا ايوهان موريتز آريا وحيدا المانيا تقدم له المانيا المسكن والزوجة والولد والمكان المرموق ، فهو الآن جندى يحمل بندقية ويحرس السجناء اذ لا تحتمل بنيته التي هدتها المعسكرات والعذاب اى عمل عسكرى آخر يتيح له أن يلبس البذلة العسكرية التي يريده الفهرر أن يرتديها ..

وتتيح له سترته الجديدة أن يلتقى بصديقه الفرنسي الذى فر من المعسكر والمصنع ، ويغريه أن يساعده هو ورفاقه على الهرب فمادا له في ألمانيا ، والمانيا عدوته وعدوة بلاده ، والحرية عند الدول الحليفة التي تدافع عن الانسان .. ويصدق ايوهان فيهرب مع أسراء الى معسكر الدول الحليفة وهناك يقابل مقابلة الأبطال ، ألم يصح بزوجته وولده ومكانه الجديد في المجتمع النازى وسامه خمسة من المعتقلين الفرنسيين على الفرار ، انه بطل يستحق التكريم والشيكولاته ، والنساء والسجائر الأمريكية ومكانا في معسكر (الشرف) وكان ايوهان يحس انه يحلم وأن الحياة قد اصبحت لعبة وان الخلاص قريب .. وذات صباح يستدعيه قائد المعسكر فجأة ليبلغه أنه عند الله لا مكان له فيه فان معسكر (الشرف) لا يأوى الا رعايا الدول الحليفة ، أما هو فهو عدو للأمم المتحدة .. ويقول ايوهان في يأس واحتجاج :

ـ لكنى لم ارتكب شيئا ضد الامم المتحدة . اقسم لك ياسيدى المدير انى لم اسىء مطلقا الى الحلفاء .

فساله المدير بصوت قاس :

ـ انت رومانيا ، ان الرومانيين اعداء الامم المتحدة ، وانت روماني واذن فانك تكون عدوا لنا بصورة آلية ..

وهكذا عاد ايوهان من جديد الى المعتقل بصفته رومانيا لاول مرة ، بعد ان دخله بصفته يهوديا وبلغاريا وآريا .. تتقاذفه جنسية لتسلمه الى جنسية ، ويتقاذفه وطن ليسلمه الى وطن ، وهو حائر طائح تاكله الآلة المخيفة التى اسمها الجماعة والتى اسمها الدولة والتى اسمها النظام ..

وايوهان ليس وحده بطل هذه الرواية الرهيبة .. ان العنس كوروجا له دوره ايضا ، وتريان ولده الكاتب المشهور الذى حاول ان يدافع عن قضية ايوهان اول الامر ولكنه سرعان ماشعل قضيته هو اذ كان متزوجا من يهودية .. فيهرب معها خوف اضطهاد النازى ليلتحقا بالمنطقة الامريكية التى كانت تبدو لهما ملاذا امينا . ولكن الحاكم الامريكى لم يكن يعرف الا اللوائح وهما يحملان جوازى سفر رومانى ، ورومانيا فى معسكر الاعداء ، اذن لا مكان لهما الا المعتقل .. ويقول تريان لزوجته وهو فى السجن :

ـ انهم لن يشعروا ابدا بوجودنا . ان الحضارة الغربية فى مرحلتنا التقدمية الاخيرة لم تعد تابه للفرد . ولا شىء يدعونا الى الامل انها ستابه له يوما ـ ان هذا المجتمع لا يعرف الا بعضا من المقاييس الفردية . اما المخلوق الكامل بصفته الشخصية فانه لا وجود له فى نظره .. انت مثلا لست الا مواطنة عدوة اعتقلت فى ارض المانية، هذا هو الشىء ما يمكن للمجتمع الغربى الرسمى ان يتخيله عنك .. ان هذا المجتمع عندما يعتقل أو يقتل احدا ، لا يعتقل او يقتل شيئا حيا . بل فكرة، رمزا .. وفى المنطق الصحيح لا يمكن ان تعزى اليه هذه الجريمة . لان اية آلة لا يمكن اتهامها بارتكاب جريمة . ولا يمكن لاحد ان يطالب آلة بمعاملة الانسان حسب مميزاته الشخصية .. كل ما أعرفه هو ان اخضاع الانسان للقوانين والمقاييس الاصطلاحية ، وهى مقاييس ممارة فيما يتعلق بالآلات ، انما يعادل جريمة قتل . ان انسانا يضطر الى الحياة بالشروط وفى الوسط الذى نحيا فيه الاسماك يموت خلال دقائق . والعكس صحيح .. لقد خلق الغرب مجتمعا مشابها للآلة . انه يرغم بنى الانسان على العيش فى صميم هذا المجتمع ويضطره الى الانسجام مع قوانين الآلة .. ومتى بلغ بنو البشر فى تشبههم مبلغ الآلات حتى يماثلوها ، فعندئذ لن يبقى بشر فوق سطح الارض ..

ان القرية الوادعة التى خرج منها ايوهان تنتهى هى الاخرى نهاية فاجعة اذ يدخلها يهودى شيوعى ملأ الاعتقال قلبه بالحقد فمضى يقتل كل من يملك حردلة ، وكل من يحمل صليبا وكل من أهان أصله ودينه من قبل اذ كانوا يعيشون وسط الناس الذين يدين فيهم الذبح منذ أجيال ..

والروس يدخلون الغرفة وزوجه ايوجان يستباح مع غيرها من نساء القرية والجرب الضروس الرهيبة تدور والطعن يقتل في نفس كل بشري كل امل ـ كل عزاء كل سلوى ـ كل انسانية ..

ثم يدخل الأمريكان بالنابالم والسحائر والنسل لكل عرض والحماسة الجوفاء لقضية موهومة اسمها قضية الغرب ..

ويموت بريان عامدا وهو يسير بعينين مفتوحتين نحو الأسلاك الشائكة التي يقف عندها الحرس شاكي السلاح .. يموت عامدا دون معنى ودون شيء ، فقد ادرك أن الانسان فقد كل معنى وكل شيء ولكن كلماته البائسة تتخللها بسرة أمل واحدة انه يقول :

« ان الرجل سيصبح معلولا خلال سنين طويلة في المجتمع الآلي ولكنه لن يموت في الأغلال .. ان المجتمع الآلي يستطيع ابتداع رفاهية ولكنه لا يستطيع خلق الفكر .. وبدون الفكر ، لا توجد العبقرية ، وان مجتمعا محروما من الرجال العباقرة مقضي عليه بالفناء . ان المجتمع الآلي الذي يحل محل المجتمع الغربي والذي سيكتسح سطح الأرض كله ، سيفنى هو الآخر ، وان انهيار هذا المجتمع الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية والعقلية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك ، ولكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين امام نور الغرب الكهربائي ، فلن يبلغوا تلك المرحلة ..

سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرفيق ، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم ، في بربرية المجتمع الآلي الغربي ، انه لن يغني بنور النيون خطوط الفكر والقلب . ان رجل الشرق سيجعل من نفسه سيدا للآلات وللمجتمع الآلي ، مستعينا بعقله ومستعينا بقلبه .. »

انني اقول مثل قول جابرييل مارسيل : لست أعمر لنفسي لو مسخت القصة الخارقة التي كتبها جورجيو .. ولكني أتمنى جاهدا أن أضع يدك على بعض نبض هذا العمل الخارق العظيم .. ودعنا نأمل ان نرى من الشرق هذا القميص الذي يحلم به أحد أبطاله الذي مات عند أطراف الأسلاك الشائكة تحجب انسانيته ويريد أن يخترقها وهو يعلم أن اختراقها ممنوع ..